ديداكتيك تدريس النص الشرعي: إشكالات ومقترحات.

د. إدريس بحوت/ باحث في علوم التربية
و ديداكتيك تدريس التربية الإسلامية والعلوم الشرعية ،
ومفتش تربوي مسلك الثانوي التأهيلي.

مدخل إشكالي:

للنص الشرعي أهمية كبرى، ومكانة مركزية لا يمكن الجدال فيها ولا الاختلاف حولها في منهاج التربية الإسلامية عموما، وفي درس التربية الإسلامية خصوصا؛ ويستمد النص الشرعي هذه المكانة الاعتبارية بصفة ذاتية فيه، لأنه وحي مقدس؛ كما يستمدها من جهة أخرى، باعتبار آثاره المترتبة عنه في وظيفيته وإعماله من قبل «الفقيه المجتهد»؛ ثم لكونه موردا رئيسيا لاستمداد المعرفة الشرعية، وبناء المفاهيم والمهارات، وتشكيل الاتجاهات والمواقف، واستنباط القيم الدينية والوطنية والكونية وتمثلها من قبل الطلاب والمتعلمين؛

لكن هذا العطاء والغنى الذي يتميز به النص الشرعي رهين بطبيعة المقاربة البيداغوجية والديداكتيكية، ومدى وعي المدرس بالصعوبات الحقيقية التي تعتريه أثناء التنزيل الديداكتيكي، والبحث دوما عن بدائل للتجاوز؛

فإلى أي حد يدرك السادة الأساتذة هذه الصعوبات؟ وما طبيعة هذه الصعوبات؟ وما الخطوات الديداكتيكية المثلى والناجعة لتجاوزها، وضمان مبدأ الوظيفية لتنمية المهارات النصية؟

حري بنا أن نشير في البداية، أن تدريسية أي مادة تعليمية تفرض الوقوف عند مجموعة من التساؤلات الديداكتيكية؛ أهمها:

لماذا هذه المادة؟ (تحديد الأهداف/ القدرات/ الكفايات التربوية المقصودة من تدريسها)؛

ما هو محتواها؟ (تحديد الأنشطة، والوضعيات، والقيم، والمفاهيم.. المراد تحقيقها)؛

إلى من تتوجه؟ (تحديد الفئة المستهدفة منها: تلاميذ المرحلة الأولى/ المتوسطة/ الثانوية/ الطلاب الجامعين..)؛

كيف ندرسها؟ (تحديد الطرق والوسائل والأساليب الملائمة لتدريسها)؛

بأي نتيجة؟ (تحديد المخرجات والآثار التربوية المتوصل إليها عبر آليات القياس والتقويم)؛

والمدرس الماهر هو الذي يستحضر هذه التساؤلات، ويسعى لتنزيلها بالشكل المطلوب حسب خصوصيات المادة التعليمية، وفئة الطلاب المستهدفين منها. إذا كان هذا المدخل البيداغوجي يُستحسنُ لزومُه من قبل مختلف المدرسين، فهو آكد وألزم بالنسبة لمدرسي العلوم الشرعية، ومادة التربية الإسلامية في كل المؤسسات والأسلاك التعليمية. لاعتبارات عدة؛ منها: أنه مبلغ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن التربية الإسلامية هي منهج حياة للطالب تخاطب فيه فطرته السليمة، وتسعى لتقويم سلوكاته، وغرس قيم النبل والتسامح والعفو والوسطية والاعتدال في العقيدة والعبادات والمعاملات.

وبناء عليه، فإن هذه الورقة تهدف إلى:

تصنيف النص الشرعي من حيث التوظيف الديداكتيكي في درس التربية الإسلامية.

تحديد وظيفة النص الشرعي ووظيفيته (صقل المهارات، وبناء القيم).

تشخيص أهم الصعوبات والإشكالات التي تعوق الاشتغال الديداكتيكي في درس التربية الإسلامية.

تقديم مقترحات وحلول ديداكتيكية لمعالجة النص الشرعي في درس التربية الإسلامية.

أولا: النص الشرعي؛ من الوظيفة إلى الوظيفية.

1. مفهوم النص الشرعي.

لغة: يطلق النص لغة على الرفع، والعلو، والظهور، وكل كلام له معنى. قال ابن فارس: «(نص) النون والصاد أصل صحيح يدل على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء» [1]. وفي معجم الكليات: «النص معناه الرفع البالغ، ومنه منصة العروس، ثم نقل في الاصطلاح إلى الكتاب والسنة..» [2]. واصطلاحا: ما ثبتت نسبته من الكلام إلى الله عز وجل أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء أكان قطعيا أم ظنيا.

2. أنواع النص الشرعي من حيث التوظيف الديداكتيكي.

يتبين من خلال التأمل لمجموع المرجعيات التربوية التي تنظم مادة التربية الإسلامية، وعلى رأسها منهاج المادة، والتوجيهات التربوية المعتمدة في تدريسها، والكتب المدرسية المقررة أيضا على اختلافها، أن النص الشرعي حاضر بقوة. ويمكن تصنيفه إجرائيا وديداكتيكيا إلى أربعة أنواع رئيسية، هي:

3. النص الشرعي بين الوظيفة والوظيفية.

النصوص الشرعية، قرآنا وسنة، تهدف إلى ربط التواصل الإنساني مع خالقه عز وجل؛ وذلك عبر تلقي توجيهات ربانية في مختلف المجالات الحياتية لترشيد الفعل البشري عقيدا وسلوكا. كما في قوله تعالى: "رسلا مبشرين ومنذرين ليلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"[3]. وقوله عز من قائل: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبن لهم"[4]. وذلك ببيان الأحكام الشرعية وحكَمها وعللها ومقاصدها..؛ ولا شك أن مدرس التربية الإسلامية هو مبلغ عن الله. ولا يخلو نشاط تربوي أو حصة دراسية إلا ويقف المدرس بمعية طلابه على عدد من النصوص الشرعية لبيانها وفهمها، واستنباط أحكامها وحكمها، هذا علاوة على وظائف ومهارات أخرى، سيأتي بيانها.

ونستنتج من هذا، أن النص الشرعي هو مقصود لذاته، ولاعتبارات أخرى؛ فهو مقصود لذاته لأنه نص مقدس ومتعبد به (الوحي المتلو خصوصا)؛ كما أنه بإعماله وتوظيفه تتحقق غايات ووظائف أخرى يمكن أن نسمها "بوظيفية النص الشرعي" ونقصد منها صقل المهارات الديداكتيكية، كالفهم، والتحليل، والاستدلال، والحجاج، وبناء القيم والمواقف..إلخ.

غير أن السؤال المحرج للمدرس خاصة، ولعموم المشتغلين بالنص الشرعي عامة، هو: كيف نحقق البعد الوظيفي في درس التربية الإسلامية؟

بالإضافة إلى التكوين والأهلية التي من المفروض أن يتميز بها مدرس التربية الإسلامية في جميع الأسلاك والمراحل والتي تحددها الدول العربية، بما فيها المغرب، مثل المؤهل العلمي/ الإجازة في الدراسات الإسلامية، أو العلوم الشرعية وأصول الدين، والخضوع للانتقاء الذي يؤهله لاجتياز مباريات ولوج مراكز مهن التربية والتكوين، حسب السلك المطلوب، ثم التخرج بنجاح من هذه المراكز.. هناك أيضا ما يعرف في الأدبيات التربوية المغربية مثلا بالأسس البيداغوجية والديداكتيكية لمنهاج التربية الإسلامية (المرجعيات)؛ وهي من مقتضيات التدريس التي ينبغي العمل بها والرجوع إليها كلما اقتضت الضرورة ذلك؛ وتشمل:[5].

1. المرجعية الشرعية:

ويستند فيها درس التربية الإسلامية إلى: (خصوصية المعرفة الشرعية المستمدة من الوحي. والعقيدة الإسلامية السمحة، ووحدة المذهب الفقهي المعتمد؛ أي المذهب المالكي).

2. المرجعية النظرية:

وتستند إلى:

- مبدأ تأصيل المفاهيم الشرعية انطلاقا من المرجعيات الشرعية نفسها.
- الانفتاح على الأدبيات الحديثة التي تعالج هذه المفاهيم، في مجالات (العقيدة، والعبادات، والفرائض، والتواصل، والصحة، وحقوق الإنسان، والأسرة، ومناهج التفكير، والقيم).
- تكريس توجه تسديد السلوكيات وبناء المواقف والقيم والاتجاهات؛

3. المرجعية البيداغوجية:

وتنطلق من مركزية المتعلم وفاعليته، والإنجاز الذاتي للأنشطة التعلمية، وتنميتها ودعمها، انطلاقا من:

- وضعيات تعلمية ذات معنى بالنسبة للمتعلم.
- وضعيات تقويمية تقيس مستوى تمكنه من المهارات الأساسية، مع ضرورة الانتقال من مركزية المعرفة والهدف التعليمي إلى وظيفية كل منهما.

4. المرجعية الديداكتيكية:

وتستند إلى: "استحضار المرجعية الشرعية للنصوص، قرآنا وسنة، من أجل تطوير العمل بها وإدماجها في الوضعيات التعلمية، بتغليب مبدأ وظيفية النصوص، ومن أجل استثمارها وتنمية مهارات الاستدلال والاستشهاد والاستنباط لدى المتعلم، بالإضافة إلى الاسترشاد بها لبناء المواقف وتسديد السلوك"[6].

ثانيا: المهارات التي ينميها النص الشرعي:

بمراعاة الشروط الذاتية السابقة في المدرس، واستئناسا بمجموع التوجيهات التربوية السالفة، يصبح النص الشرعي نصا فاعلا ومؤثرا، حسب منهاج التربية الإسلامية، ويسهم وفقا لذلك في بناء عدة مهارات أساسية، حاولت حصرها فيما يلي:

- الأداء المهاري/ اللفظي (القراءة والترتيل) والتأثير الوجداني الروحي.
- القدرة على التمييز بين أنواع النصوص الشرعية.
- تنمية مهارة الفهم. وإمكانية تعميمها على سائر مواد المنهاج الدراسي.
- الاكتساب والتحصيل: ويشمل المفاهيم اللغوية والشرعية؛ وتحديد أوجه العلاقة بينها؛ والتمكن من المعرفة الشرعية؛
- تطوير مهارة التحليل. مع إمكانية تعميمها على سائر مواد المنهاج الدراسي أيضا.
- التعرف على الأساليب اللغوية والبلاغية، ودلالتها...
- الاستنباط الأحكام؛ القواعد؛ القيم؛ الحكم؛ القضايا؛ الاشكالات.
- بناء المضامين وتحديد الإشكالات والقضايا.
- تمثل القيم في النص واستدماجها في وضعيات حياتية حقيقية وذات معنى، في الأسرة، وفي المجتمع عموما.
- الاستدلال به في وضعيات (تواصلية؛ حجاجية؛ بيانية؛ تقويمية...)
- التعميم والتعبئة لمجمل هذه المهارات كلما اقتضت الضرورة، ومن خلال وضعيات حقيقية دالة بالنسبة للطلاب والمتعلمين.

لكن المشرف التربوي اليقظ، والممارس الماهر، الساعيان إلى استكناه النص الشرعي، والإفادة من غزارة منبعه الفياض، ليلحظان، ويواجهان بعدة إشكالات بيداغوجية وديداكتيكية تقف حجرة عثرة في سبيل تحقيق نيل هذا الفيض المدرار في ينابيع النص الشرعي. وفيما يلي بيان لأهم هذه الإشكالات.

ثالثا: إشكالات تدريس النص الشرعي.

هناك عدة إشكالات تعترض مدرس التربية الإسلامية، وقد تجلت لي من خلال الممارسة الصفية كمدرس سابق للمادة في تدريس العلوم الشرعية بالتعليم الأصيل الثانوي، وبصفتي أيضا مدرسا لمادة التربية الإسلامية بالتعليم الثانوي العام سابقا؛ أو بصفتي مشرفا تربويا للعلوم الشرعية، ومادة التربية الإسلامية حاليا؛ وفيما يلي عرض مركز لهذه الإشكالات، مع تحليل مختصر لها:

1. إشكال المقاربة: ونقصد بها المقاربة البيداغوجية، ومن أهم ملامحها:

الإلقاء/ واستعراض العضلات المعرفية على الطلاب والمتعلمين.

ـ التناول الخطي لدرس التربية الإسلامية.

ـ جعل الحصة مجالا "لتسويق" تحاضير الطلاب، دون فحصها واستثمارها.

ـ نهج مقاربة المفردة اللغوية، وإغفال بناء المفهوم الشرعي النسقي.

ـ الاهتمام بالكم المعرفي، على حساب تنمية المهارات النصية.

ـ إغفال المقاربة النسقية والشمولية في التعامل مع النصوص الشرعية.

2. إشكال الملاءمة: ويتجلى هذا لإشكال في عدم توفيق لجن التأليف المدرسي في الاختيار البيداغوجي الأنسب. ومن تجلياته في كتب المادة:

ـ اشتمال الكتاب المدرسي على نصوص لا تناسب الدرس.

ـ وجود نصوص ذات تناسب جزئي لا يفي بالغرض المطلوب.

ـ وجود نصوص غير ملائمة للمستوى الدراسي.

3. إشكال المعالجة: ونعني به المقاربة الديداكتيكية، ومن أهم ملامحها:

ـ عدم التوفق في أداء النص الشرعي وعرضه من قبل المدرس.

ـ كثرة القراءات من قبل الطلاب، مما يفقد النص وظائف أخرى.

ـ الإغراق في مناقشة القواعد التجويدية، علما أن الأمر يتعلق بدروس مختلفة، وليس بحصة تجويدية.

ـ الإسهاب في التوثيق. أي توثيق السور والأعلام وبشكل نمطي تغيب فيه الوظيفية والاستثمار الحسن لمرحلة التوثيق.

ـ التركيز على النص لذاته، وإغفال قضايا جوهرية فيه، والتي ينص عليها منهاج المادة.

ـ اعتماد المدخل الأحادي والتنميط في مقاربة النص. أي عدم تنويع أسلوب التدريس ومع جميع النصوص والفصول الدراسية.

ـ الاكتفاء بالجاهز في الكتاب المدرسي؛ مثل: (القاموس والمضامين وأسئلة الكتاب المدرسي).

ـ حصول الالتباس في المهارات المطلوبة، والخلط بينها. كالخلط بين مهارة الفهم والتحليل مثلا.

ـ التركيز على المهارات الدنيا، على حسب تنمية مهارات التفكير العليا.

4. إشكال السؤال الديداكتيكي: تبين لي من خلال الممارسة الإشرافية، أن هناك إشكالاتٍ عدة في طبيعة السؤال الديداكتيكي، وطبيعته، وطرق توظيفه، أهمها:

ـ الارتجال.

ـ العمومية.

ـ النمطية.

ـ ضعف الصياغة.

ـ عدم التنوع.

ـ الإيحائية .

ـ لا يراعي الفروق الفردية.

ـ لا يبنى بشكل تدريجي.

ـ لا يقيس المهارات المطلوبة.

5. إشكال المحتوى: ويتجلى في اعتماد المدرس على:

ـ شروحات لغوية جاهزة في الكتاب المدرسي.

ـ شروحات لغوية ناقصة/خاطئة/غامضة.

ـ اسئلة التحليل والفهم الجاهزة.

ـ مضامين جاهزة، وتنقصها الدقة وحسن الصياغة. وغير ملائمة في كثير من النصوص.

6. إشكال التدبير الزمني: عدم مراعاة المدرس للغلاف الزمني المخصص للدرس، والمقاطع التعليمية، مما يوقعه في:

ـ الإسهاب في التقويم القبلي/ التشخيصي.

ـ كثرة عدد القراءات وبدون جدوى.

ـ الإغراق في التوثيق أيضا يكون على حساب مراحل ذات أهمية بالغة في الدرس.

ـ كثرة الشروحات غير المفيدة في بناء الدرس (الحشو والإطناب).

ـ تحويل الدرس إلى حصة لمناقشة قضايا التفسير، وعلوم القرآن، والفقه والأصول، وعلم الحديث.. مما يحول الدرس إلى محاضرة لا تلائم الفئة المستهدفة. ولا تنسجم مع أهداف الدرس المسطرة.

رابعا: الحلول والمقترحات الديداكتيكية:

استثمارا للتجربة الشخصية في مجال التدريس والإشراف التربوي، وتجازا للتوصيف، ورغبة في تعميم الخبرة والتقاسم مع المهتمين والمدرسين للعلوم الشرعية في الدول العربية، وفي غيرها من المؤسسات التربوية، فإنني أنطلق من مجموع الإشكالات والنقائص التي تعتري المنهاج التربوي المغربي الخاص بمادة التربية الإسلامية بالسلكين التربويين الإعدادي والثانوي التأهيلي، لتقديم مقترحات ديداكتيكية لتجاوز إشكالات تدريس النص الشرعي. أملا في الإسهام لتأسيس ديداكتيك تدريس العلوم الشرعية على غرار باقي مواد المنهاج الدراسي، وتحقيق الفائدة المرجوة.

1. إشكال المقاربة: أهم البدائل الديداكتيكية للتجاوز:

اعتماد الشمول في المقاربة (المجزوءة؛ عنوان الدرس؛ أهداف الدرس؛ محاور الدرس؛ عناصر الدرس؛ قدرات المتعلمين ..).

التركيز على البعد الوجداني والروحي لضمان التفاعل الصفي في معالجة النصوص.

2. إشكال الملاءمة: أهم الحلول الديداكتيكية للتجاوز:

اختيار النص المناسب.

استبدال النص بنص آخر كلما أمكن ذلك واقتضته الضرورة.

الاقتصار عى الجزء الملائم في النص.

3. إشكال المعالجة: أهم الخطوات الديداكتيكية للتجاوز:

تشجيع التلاميذ الموهوبين صوتيا، لتحفيز الآخرين على حسن الإنصات، وضمان الجو الروحي لمعالجة النصوص.

التركيز على البعد الوظيفي فقط، في التوثيق، ومناقشته شفويا، وإن كان لابد من كتابته فينبغي أن يكتب بتركيز، وعلى هامش السبورة.

اعتماد السياق في بناء المفاهيم، مع مراعاة المنهج اللولبي في تنمية المفاهيم الشرعية.

تنويع طرق التدريس، وخاصة الطريقة الحوارية، والتعلم بالوضعيات، وضرب الأمثلة أثناء الشرح.

استثمار الوسائل الديداكتيكية المتوفرة والممكنة، وعلى رأسها السبورة، والتمثيلات، والبيانات، والخطاطات التي تقرب المعاني المقصودة ليستوعبها المتعلم.

اعتماد المداخل الأسلوبية، واللغوية، والنحوية، لتفكيك النص، وإدراك تمفصلاته الأساسية.

استثمار المنهج الفقهي والأصولي والتفسيري في استنباط الأحكام والقواعد الواردة في النص.

تنويع أساليب التحفيز، وتشجيع بيداغوجيا الخطأ.

4. إشكال السؤال الديداكتيكي: أهم المقترحات الديداكتيكية للتجاوز:

الدقة في الصياغة.

الملاءمة.

التنوع.

التدرج.

5. إشكال المحتوى: أهم الإمكانات الديداكتيكية للتجاوز:

إعادة النظر في الشروحات الواردة في الكتاب المدرسي أثناء التخطيط للدرس.

الاستعانة بكتب التفسير المناسبة أثناء الإعداد، ويستحسن استصحاب نماذج منها أثناء الإنجاز.

التوقف عند بعض المفاهيم الأساسية في النص والتي تخدم الدرس ولو لم يرد شرحها في القاموس اللغوي.

تفادي المضامين الجاهزة، واستبدالها بمضامين يبنيها المتعلمون بشكل تشاركي انطلاقا من الخطوات الديداكتيكية السابقة.

6. إشكال التدبير الزمني: أهم البدائل الديداكتيكية للتجاوز:

التخطيط الجيد للدرس.

تدبير الوقت بشكل جيد، وعدم الإطالة في القراءة والتوثيق والاستطرادات.

تخصيص ثلث الحصة كحد أقصى لمعالجة النصوص. ثم تحليل محاور الدرس فيما تبقى من الوقت.

وخلاصة القول، فإن الديداكتيكي الماهر هو بمثابة صانع له أدواته العلمية والمنهجية يوظفها حسب الحاجة. وحتى تكون صناعته التدريسية صناعة متقنة ورائجة تجلب «الزبناء» لابد وأن يحرص على الإبداع، ويجتنب النمطية والرتابة القاتلة والمملة. ولاسيما إن كان مدرسا للعلوم الشرعية، ويشتغل على الوحي، ويسعى لبناء المعرفة الشرعية أحكاما وحكما ترسيخها لدى الناشئة.. اغترافا من ينابيعها الصافية.

الهوامش:

[1]. معجم مقاييس اللغة لابن فاس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ط 1979، ج5/ 356.

[2]. الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1998، ص908.

[3]. سورة النساء/ الآية: 165.

[4]. سورة إبراهيم/ الآية: 4.

[5]. التوجيهات التربوية الخاصة بمادة التربية الإسلامية/ السلك الثانوي التأهيلي، لوزارة التربية الوطنية المغربية، 2007. (بتصرف).

[6]. نفسه، ص 8.